معين بسيسو

علقوا ذلك الحـذاء في سلسلة حول أعناقكم ..

أول قدم عربية مصرية هبطت فوق الضفة الشرقية لقنـــــاة السويس هي ، ولا شك ، ذلك التوقيع الرائع في « اوتوغراف » العصر العربي ، اذ كان على الحذاء المصري ان يضع توقيعه فـوق رمال سيناء . والامر نفسه بالنسبة الى القدم العربية السورية التي هبطت خلف خط وقف اطلاق النار ، حيث كان على الحذاء السوري ان يضع توقيعه فوق صخور المرتفعات السورية المحتلة . وهكذا اصبح ، الى جانب توقيع القدم الفلسطينية ، توقيع القدم المصرية ، وتوقيع القدم السورية .

ان الاثر الذي طبعته أول قدم مصرية فوق رمال الضفة الشرقية من القناة يجب المحافظة عليه ، ويجب ان لا تطمسه الريح . يجب ان تؤخذ صورة ذلك الاثر ، لتلك القدم ، ونطبع منها ملايين الصـور ، ونقوم بتوزيعها في مختلف بلدان العالم . يجب ان يتحول ذلك الاثر ، لتلك القدم ، فوق رمال الضفة الشرقية للقناة ، الى طابع بريد .. لكل رسائلنا الى العالم ، العالم الذي شطب من خارطته اســم المنطقة التي نعيش فيها ، واصبـــح يعرفنا بمنطقة « اللاحرب ـ اللاسلم » !

كم في ودي ان اقترح شيئا آخر ! كم في ودي ان اعرف اسم المقاتل الاول الذي وضع القدم الاولى فوق رمال الضفة الشرقيـــة المحتلة من القناة ، عندئذ سوف اقترح عليه ان يقدم حذاءه لنا ، مقابل كل الاحذية العربية التي لم تشترك في القتال بعد ـ رغم انني اعرف تماما ان ذلك المقاتل سيرفض كل تلك الاحذية التي لم تقاتل ، ويفضل القتال بلا حذاء !

لو اصبح حذاء ذلك المقاتل في يدي لطالبت كل النحاتين ، في وطننا العربي ، بان يقوموا بنحت نموذج طبق الاصل لتلك القدم .. وساقترح على كل دور التوزيع في بلادنا ، دور التوزيع التي كـانت توزع صورة حذاء « اللاحرب ـ اللاسلم » على غلاف كل الكتب التي كانت تصدرها ، ان تقوم بتوزيع ذلك النموذج . يجب ان يعرض ذلك الحذاء في الواجهات الزجاجية للمكتبات العربية ، لا كافضـــل كتاب لعام ١٩٧٣ ، بل كافضل كتاب منـــذ عام ١٩٤٨ . ويجب ان لا يقتصر الامر على المكتبات ، فلا بد من تعميم هذا النموذج ، الكبير او الصغير ، لقدم المقاتل العربي ، على كل مكاتب جامعة الـــدول العربية ، وعلى الملحقين الصحافيين للـــدول العربية ، فها هـم ، اخيرا ، في استطاعتهم ان يقدموا للراي العالمي شيئا حقيقيـــا .

أنا بالطبع لا أطالب هواة تعليق السلاسل الفضية أو الذهبية حول أعناقهم ، بأن يعلقوا نموذجا صغيرا من ذلك الحذاء لذلك المقاتل العربي في سلسلة حول رقابهم ... ولا أطـــالب أيضا اصحاب السيارات الخاصة او العامة ، بتعليق نموذج من ذلك الحذاء خلـف الواجهات الزجاجية لسياراتهم ... كما لا أطالب ، للمرة الثالثة ، هواة جمع الاحذية كديكورات لبيوتهم ان يجعلوا ذلك الحذاء جـزءا من ديكور البيت ، ولكنني اطالب بشيء واحد ، ان لم يوافقوا على تعليق ذلك الحذاء في سلســــلة حول رقابهم ، او تعليقه خلف الواجهات الزجاجية لسياراتهم ، وان لم يرتضوا به كجزء من ديكور بيوتهم .. فلا بد ان يتحول ذلك الحذاء الى آنية زهور ، يزيـــن منازلهـــم .

أكتب هذا عن الحذاء العربي ، المصري والسوري والفلسطيني ، وأنا أعلم تماما ان الارض العربية المحتلة ، ان سيناء والمرتفعـــات السورية وفلسطين المحتلة كلها ، ليست أبدا هي تلك الكعكة التـي يمكن ان تغوص فيها السكين العربية بسهولة ... ان الارض المحتلة ليست كعكة ، ولكن اذا لم تكن كعكة بالنسبة الينا فيجب ان لا تكون كعكة ابدا بالنسبة الى العدو ، يغرس فيها ست شمعات ، ويشعلها ، ثم يطفئها بمناسبة العيد السادس لميلاد الاحتلال للارض العربيـة ، ويواصل الاحتفال بعيد ميلاد الاحتلال على مر السنوات .

* * *

أنا أكتب هذا عن الحذاء العربي ، وخارطة جبهة القتال ليست امامي ـ وأنا لا أقوم بمسؤولية غرس الدبابيس فوق الخارطـــة ـ فعلى المائدة التي أكتب عليها لا توجد خارطة ، بل كومة من الجرائد العربية والاجنبية ، وراديو ترانزستور ، والملحق الاول لمجـــلة « فلسطين الثورة » ، وذلك التليفون ، ذو الرقم الخاص ، والمكرس للاتصالات التليفونية الخاصة للاخ أبو عمار ـ وهو في احد المواقع المتقدمة من خطوط المواجهة الامامية مع العدو ـ وفوق رأسي صورة علي أبو اياد ..

أكتب هذا في الوقت الذي قرأنا فيه ، في الاعلام الفلسطيني الموحد ، تأجيل الاحتفال بذكرى مصرع الشاعر بابلو نيرودا . واعتقد بأن بابلو نيرودا سيعطي صوته لقرار التأجيل ، فالرصاص الذي يثقب الآن الخوذة الفولاذية للفاشية العسكرية الاسرائيلية المحتلة ، ينطلق من تلك الخوذة ليضرب الخوذة الفاشية العسكرية الاخرى لقتـــلة سلفادور الليندي ، وبابلو نيرودا ، وآلوف عمال المنـــاجم فــــي التشيـــلي .

* * *

بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، انطلقت بعض مكبرات الصوت تطالبنا بوضع أقدامنا العربية في لفـــائف القطن ، وانطلقت بعض مكبرات الصوت الاخرى تطالبنا بوضع أقدامنا في الجبس ، وتعليقها

الى أهلي ، ونحن نتمدد فوق سرير وقف اطلاق النار في مستشفى « اللاحرب ـ اللاسلم » . اما مكبرات الصوت الثالثة ، فلقد رأحت تطالب ، على الدوام ، اما بدق المسامير في القدم الفلسطينية ومنعها من الحركة أو في حالة رفض القدم الفلسطينية لاستقبال المسامير في لحمها ، ان تكون هناك عملية قطع للساق الفلسطينية . ولقد واجهت القدم الفلسطينية ، عبر السنوات الثلاث الماضية ، كل مؤامرات وحملات الهجوم بالسكاكين مرة وبالمسامير مرة اخرى على الساق الفلسطينية ، وكانت المهمة الدموية اما دق المسامير في القدم الفلسطينية ، أو قطعها ..

* * *

كل هذا أمامي وأنا أكتب عن الحذاء العربي . ومن خط التليفون الساخن مع الاخ ابو عمار يأتي صوته خاطفا كومض البرق ، او كومض ضربات السكين وهي تغوص في اللحم :

ـ انهم يضعون صلبان الورق المصمغ فوق نوافذهم في الارض المحتلة ، ويضعون الصلبان ايضا على اخبار المعارك التي يخوضها مقاتلونا خلف خطوطهم ..

أجل ... فمع مرحلة التعتيم في الارض المحتلة ، يقومون بالتعتيم أيضا على أخبار المقاتلين الفلسطينيين ، في الوقت الذي تتساقط فيه صواريخ الثورة على مستوطنات الاحتلال في الجليل الاعلى والجولان وبيسان ، وفي الوقت الذي تتساقط فيه قنابل الثورة الفلسطينية فوق القاعدة البحرية في عتليت ، وتقوم بنسف خزانات الوقود في مطار تل ابيب .

اجل ، للمرة الثانية ، يقوم العدو بالتعتيم على المعارك الدموية التي تخوضها الثورة الفلسطينية خلف خطوطه الخلفية وفي خطوط المواجهة الامامية معه . فالعدو يعامل الثورة الفلسطينية كما يعامل مصابيح السيارة التي يفرض عليها ان تقوم بعملية التعتيم على أضوائها ، فتقوم بطلاء مصابيحها الامامية باللون الازرق .

غير أن عمليات التعتيم على اخبار الثورة الفلسطينية ليست بالامر المفاجىء ، وليست هي المفاجأة بالنسبة الى الثورة الفلسطينية . فلقد كانت المفاجأة الكبرى من جانب الدكتور كيسنجر ، وزير خارجية الولايات المتحدة الاميركية ... فلقد فوجىء الدكتور كيسنجر ـ على حد قوله ـ بالمعارك التي تدور في صحراء سيناء وفي المرتفعات السورية ، وفي قلب الارض المحتلة !

والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه الآن ، هو لماذا فوجىء بالاحذية العربية وهي توقع في « اوتوغراف » أرضها المحتلة ؟!

هل كان الدكتور كسينجر يتوقع استمرار اغلاق أفواه المدافع ، وتحويل منطقة « اللاحرب ـ اللاسلم » ، أي تحويل الارض العربية المحتلة كلها ، الى حديقة خاصة او عامة ، الى حديقة اميركية ـ اسرائيلية .. او تحويل سيناء والمرتفعات السورية الى « كيبوتس » اسرائيلي ؟

غير ان الدكتور كيسنجر لم يفاجأ وحده باشتعال النيران ، بل فوجىء رئيسه نيكسون ايضا ، الذي أيقظه وزير خارجيته من نومه ، وأبلغه خبر استئناف الحرب في الجبهتين المصرية والسورية.

ان سرير « اللاحرب ـ اللاسلم » ، لم يعد هو السرير النموذجي أبدا لا للدكتور كيسنجر ، ولا للرئيس نيكسون ، ولا لكل الذين قاموا باستغلال مناجم الذهب والفضة والماس في حقول منطقة « اللاحرب ـ اللاسلم » .

* * *

ان مواسير المدافع لم تنتظر ان تخرج من قبعة الدكتور كيسنجر تلك المناديل الملونة لحلول التصفية ، فلقد خرجت من خوذة المحارب العربي ، بدل المناديل ، رايات عربية طمرتها ، لسنوات مضت ، الرمال التي كانت تتحرك من منطقة « اللاحرب ـ اللاسلم » .

في أعقاب كارثة الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، أي في أعقاب الحرب الاسرائيلية الخاطفة ، أصبح الرباط الاسود فوق العين اليسرى هو صرعة أوروبية واميركية ... اصبح الرباط الاسود فوق العين اليسرى لموشى دايان ، هو رباط العيون الاوروبية والاميركية التي تريد ان ترى بعين واحدة فقط ... وترفض عينها الاخرى !

وعبثا حاولت كل أجهزة الاعلام العربية ، رغم كل الخبرات والتجارب الموسوعية للاعلاميين من الدكاترة والباحثين العرب ، ورغم كل محاولات تقديم العقل الالكتروني ـ كأحد ابطال المعركة ضد العدو ـ عبثا حاولت ان تنزع ذلك الرباط من فوق العين اليسرى !

وجاءت تلك القدم ... جاء ذلك الحذاء العسكري الثقيل ، الحذاء ذو الكعب الذي لا يبلغ ارتفاعه الثلاثة سنتيمترات ، فاذا بها تفعل فعلها الشديد ، اكثر بكثير مما فعلته الكعوب العالية جدا لكافة اجهزة الاعلام العربية .

لقد انتصر كعب المحارب العربي على كل الكعوب العالية ، التي كانت تسير في منطقة « اللاحرب ـ اللاسلم » ، تماما كما تسير الكعوب العالية في شارع الحمراء . وحين انطلقت تلك الاحذية المصرية ذات الكعوب المنخفضة فوق رمال سيناء .. وحين انطلقت أحذية سورية اخرى فوق المرتفعات السورية ، والى جانبها وفي مقدمتها تلك الاحذية الفلسطينية ، أصبح على العيون الاوروبية والاميركية ان ترى بعينين ، وليس بعين واحدة . لقد أوشك الحذاء العربي ان يتحول الى صرعة ، وأوشك مصممو الاحذية ان يحولوها الى صرعة حذاء ٧٣ ـ ٧٤ .

* * *

لقد ذاقت القدم العربية لذة طبع القبلة الاولى ـ بعد سنوات طويلة من الحرمان ـ على صدر الارض العربية المحتلة ... وأنا لا أراهن على تلك القدم كحصان في سباق الخيول ، ولكنني ألف شراييني كلها حولها ... فلا الشعر العظيم ، ولا الكتابة العظيمة التي تبقى ، هو ذلك الشعر او تلك الكتابة التي تحتكر الكتابة دائما عن الانتصارات ـ وعن الانتصارات وحدها ! فالشعر العظيم والكتابة العظيمة قد وقفت ، عبر مراحل التاريخ كلها ، مع اولئك الذين يقاتلون وليس في جيوب معاطفهم ـ بوليصة تامين الانتصار ، موقعة من أية شركة تامين !

لقد سقط سبارتاكوس العظيم قبل سبعين عاما من الميلاد وبقي اسمه ، وسقط اسم القائد الروماني الذي هزمه تحت حذاء التاريخ ـ من يذكر الآن اسمه ؟! ـ ولكن ليس قاعدة في التاريخ ابدا ان يسقط كل سبارتاكوس ، وينتصر كل روماني . واذا كان سقوط البربرية الاسرائيلية هو احتمال اليوم ، ففي غد وبعد غد سيصبح حتمية ...

* * *

الى جانب المقاتلين المصريين والسوريين والفلسطينيين يقاتل الجنود المغاربة ... وفوق رؤوس المقاتلين مظلة جوية مصرية وسورية وعراقية وجزائرية ... وبئر النفط الليبية تقدم اوراق اعتمادها للمعركة ، وتونس تقدم المستشفى ، ولكن اين هو المقاتل العربي الجريح من كل أرجاء الوطن العربي ؟..

* * *

لا مشرحة في المعركة ، ولا ثلج يوضع فوق جثث القتلى ... فالمقاتلون ليسوا في حاجة الى ثلج ، فهم يسقطون تحت أشعة الشمس من أجل ان تتحول جلودهم الى حقول قمح وقطن وورد ... وعلى الذين لا يقدمون للمعركة غير الثلج ان يحتفظوا به لكؤوسهم

... الثلج لكؤوسهم ، وليس لافواه القتلى !..

* * *

ان القدم العربية ، حين لامست الارض المحتلة ، قد القت ببذرتها في رحم تلك الارض ..

والبذرة تتحول الآن الى نطفة ، وستكبر النطفة ، وتحت جلد الارض المحتلة ، التي ذاقت طعم الدم العربي ، ستترعرع تلك النطفة ...

لقد حبلت الارض المحتلة حين لامستها تلك القدم العربية ، ولا بد ان تلد ... وستلد فوق أرض القتال ، في سيناء وفي المرتفعات السورية وفي الارض المحتلة ، فلقد حبلنا وولدنا ، لسنوات طويلة مضت ، في منطقة « اللاحرب ـ اللاسلم » .. وجاء كل اطفالنا مشوهين .. وغير شرعيين ايضا !

ان أعظم ما تقدمه أيام القتال لنا الآن ليس تحرير هذا الجزء المحتل من الارض العربية او ذاك ، ولكنها قامت بتحريرنا ـ نحن ـ من أولئك الذين في أعقاب هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ وضعوا الرباط الاسود لموشى دايان فوق عيونهم ، وانهالوا على ثقافتنا وتاريخنا وحضارتنا ضربا بالعصي والكرابيج ، وقاموا بتسميم كافة الآبار التي كنا نستقي منها . لقد فعلوا هذا لانهم كانوا يعتقدون بأن هذه هي فرصتهم . لقد وجدوا في الحرب الصاعقة الاسرائيلية أسلوبا لحرب خاطفة في الشعر وفي كل مجالات الكتابة ايضا .. ومن هنا ظهروا في أعقاب الكارثة الماضية بكامل ثيابهم العسكرية الشعرية ، وبأعلى صور وأشكال العجرفة الشعرية .

ان أعظم ما قدمته أيام القتال لنا ان القدم العربية قد ألقت بالقطن الملطخ بالدم ، وبالجبس المتحجر ، وبالمسامير ، في وجوه كل اولئك الذين تحولوا الى ممرضين وأطباء في مستشفى « اللاحرب ـ اللاسلم » .

ان أعظم ما قدمته أيام القتال لنا انها أعادت الشرف للهواء العربي ، وللصوت العربي ، واصبح راديو الترانزستور ، ولاول مرة منذ سنوات طويلة ، مصدرا من مصادر الثقة .

وبعد ذلك ، فالانتصارات لا تقاس بالاميال ولا بالكيلومترات ، ولكنها في بعض مراحل التاريخ ، وفي هذه المرحلة التي نعيشها ، تقاس بمساحة تلك القدم ، بمساحة ذلك الحذاء ، لذلك المقاتل العربي .

الاسبوع العربي
١٥ تشرين الاول

مع أبو عمار ...

فوق صخرة من صخور مرتفعات الرؤوس ، في سفوح جبل الشيخ الغربية ، والعلم الفلسطيني يتماوج في الهواء ويلقي بظله فوق الصخور ، أخرج أبو عمار دفتره الصغير ، الذي يرافقه دائما ، واقتطع منه ورقة وضعها فوق صخرة ملساء من صخور المرتفعات البيضاء التي تشبه الرخام ، وراح يكتب ..

كان هواء المرتفعات لا يزال مشبعا برائحة البارود ... وتحت هذه الصخرة او تلك ، كان هناك اكثر من بقعة من الدم ... تتوهج تحت اشعة الشمس وهي توشك على الغروب . ولقد ترك المقاتلون الفلسطينيون بقع دم شهدائهم وجرحاهم كما هي بعد ان استولوا على الرؤوس الثلاث في سفوح جبل الشيخ في الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم ٧ ـ ١٠ ـ ٧٣ ، وبعد قتال دموي ومواجهة مباشرة بالرشاشات والقنابل اليدوية مع المفرزة الاسرائيلية التي كانت تحتل الرؤوس الثلاثة وتتحصن خلف صخورها ، وتحت غطاء من قنابل المدفعية والصواريخ الثقيلة ...

لقد ترك المقاتلون الفلسطينيون بقع دماء شهدائهم الخمسة الذين سقطوا فوق الصخور البيضاء ، وبقع دماء أحد عشر جريحا.. تركوها ، ولم تمتد يد أحد منهم ، يطمرها بالتراب ، أو يغطيها بالاعشاب .

ان الدم الفلسطيني المراق يجب ان لا يغطى ... فما أسرع ما تشربه الارض ، وتختزنه في شرايينها ، من أجل ان تستمر الدورة الدموية للخصب والعطاء بالنسبة الى الارض .

كان ابو عمار يكتب ومن حوله التفت مجموعة من المقاتلين . ومن الذي يستطيع ان يمنع عينيه من ان تمتدا من فوق كتفي القائد العام للثورة الفلسطينية ، الذي رفض الا أن يخوض المعارك بنفسه ؟ من الذي يستطيع ان يمنع عينيه من ان تمتدا من فوق كتفي القائد العام للثورة الفلسطينية ، وهو يضع الورقة الصغيرة البيضاء فوق الصخرة البيضاء ويكتب :

« الاخ الرئيس انور السادات ،

« الاخ الرئيس حافظ الاسد ،

« سيطرت قوات الثورة الفلسطينية ، بناء على الواجب المطلوب منها ، على مرتفعات الرؤوس الثلاث ، في الساعة الخامسة من بعد ظهر هذا اليوم . كما نفذت قوات الثورة عددا من العمليات في الجليل الاعلى وداخل الارض المحتلة ... » .

ويتوقف أبو عمار لحظة .. ينظر الى وجوه المقاتلين ، وينظر الى الصخور ، والى العلم الفلسطيني الذي يتماوج في هواء الجبل ، وكأنه يستمد القوة ... فقط من لون واحد في العلم الفلسطيني هو اللون الاحمر ، لون الدم ، فيواصل الكتابة :

« اخوانكم الثوار يجددون العهد على المضي قدما للاستمرار في القتال حتى تحقق أمتنا العربية المجيدة انتصارها الكبير بتحرير كامل التراب .

« أطيب تمنياتنا للانتصارات الرائعة التي يحققها الابطال على جبهتي القتال في سيناء والجولان » .

ويقرأ ابو عمار تلك الكلمات الكبيرة ، فوق الورقة الصغيرة ، ويمد بها يده الى احد المقاتلين وهو يقول :

ـ معذرة .. فالخط غير واضح ..

غير ان المقاتلين اعتادوا على خط ابو عمار ، كما اعتادوا على رؤيته دائما بينهم .

وكدت أصرخ :

ـ لقد تركنا الآلة الكاتبة ، ذات الكلمات المطبوعة الواضحة ، للذين يكتبون وهم خلف مكاتبهم .

ويتناول المقاتل الورقة الصغيرة ، ويمضي داخل الموقع ... ليقوم بعملية ارسالها .

* * *

أحد المقاتلين استند برأسه الى مدفعه الرشاش وراح ينظر الى الصخور البيضاء . كانت مستعمرات كريات اشمونا ، هونين مرجليوت ، مسكان عام .. الخ ، تحت قدميه مباشرة ..

كان ذلك المقاتل يستند برأسه الى مدفعه الرشاش ، اما عينيه فكانتا تقعان فوق المستوطنات الأسرائيلية .. ما أبشع عمليات التزوير فوق الخارطة ! وكأنه كان يجيب على سؤال ، ارتفع صوت ذلك المقاتل وعيناه لا تزالان ترفرفان فوق ذلك الجزء من ارض وطنه :

ـ هذه الرؤوس الثلاث ، التي حررناها اليوم في ٧ ـ ١٠ ـ ١٩٧٣ ، كان لها اسم آخر عام ١٩٦٩ ... حينما كنا خلف صخورها ،

وفوق صخورها ، كان اسمها « قاعدة التحدي » . ولقد احتفظنا بها ، رغم الدم الذي سكبناه فوق تلك الصخور ... احتفظنا بتلك الرؤوس الثلاث في سفوح جبل الشيخ ، رغم كل مؤامرت الحصار والمطاردة والغارات الجوية . ولظروف خارج اطار الكلام المباشر في هـــذه الظروف ، هبطنا من تلك المرتفعات ، هبطنا من تلك الصخور ولم نترك غير علمنا الفلسطيني ، وبالطبع فلقد أنزله الاسرائيليون ، الذيــن جاؤوا بعدنا . ولكن انظر . ها هوذا العلم الفلسطيني يرفرف للمرة الثانية ، وبعد غياب خمس سنوات ، يرفرف فوق « قاعدةالتحدي » بعد ان عاد لها اسمها .

ونظرت الى العلم الفلسطيني ، وخيل اليّ انني قد اصبت بعمى الالوان . لم اعد ارى من الوانه الاربعة غير لون واحد ، هــو اللون الاحمر . اما الالوان : الاسود والابيض والاخضر ، فلقـــد طمست تماما ، كانها لم تكن من قبل من ضمن الوان العلم الفلسطيني!

ولم اكن انا وحدي الذي كان ينظر الى العلم الاحمر . فلقد كان ابو عمار ، هو الآخر ، يسلط عينيه فوق ذلك اللون ، وكانـه كان يريد ان يقول للمقاتلين :

ـ لقد شطبنا اللون الابيض من خارطة الواننا ـ وانتم تعرفون جيدا معنى هذا اللون ـ اما اللون الاسود ، فلقد عشناه طيلة ايــام الحصار والمطاردة . انا لا أستطيع ان ارفض اللون الاخضر . فهــو لون وطني . لون شجرة الزيتون ذات الجذور العميقة في الارض .. فحافظوا على اللون الاحمر ، فهو لون دمنا ، كما تحافظون عــلى حدقة العين .

* * *

ونهض ابو عمار ، والتف حوله المقاتلون . ومضى الى حيث ارتكز العلم الفلسطيني فوق أعلى صخرة في الرؤوس الثـلاث ، في سفوح جبل الشيخ ، في الارض المحتلة ..

مضى ابو عمار الى العلم الفلسطيني ، وقـــد غربت الشمس تماما ، ومضى اليه احد المقاتلين ، كانما كان يريد ان يذكره بـــان الشمس قد غربت ، وان عليه ، وهو صائم ، ان يتناول طعـــام فطوره الآن .

ووضع ابو عمار كفه فوق عينيه ، ليحجب الدموع التي راحت تترقرق من عينيه وهو يقول :

ـ لقد كانوا صائمين مثلي ، أولئك الذين حرروا الرؤوس الثلاث من سفوح جبل الشيخ ، وسقطوا فوق هذه الصخور .

* * *

ومضى أبور عمار الى العلم الفلسطيني وقبله ... قبله وبكى . وبكى المقاتلون من حوله . انها دموع الرجال .

في مثل هذه اللحظات ، فاما ان تصاب بالجنون . او تقدم حفنة من العشب ، يفطر بها القائد العام لثورتك !

* * *

... وغربت الشمس . ورغم ان الشمس قد صبغت مصابيحها ونوافذها باللون الازرق ، فلقد رأيت ابو عمار . رأيته وهو ينحني فوق الارض ، ويتناول حفنة من التراب مصبوغة بالدم ، يتنــاولها ويشمها كالوردة ، ويقبلها ، ويضعها في جيبه ويمضي ..

الاسبوع العربي
١٥ تشرين الاول

سقوط الوجه الآخر لخط بارليف

« في تمام الساعة الثانية من بعد ظهر السبت ٦ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ ، اجتاز الادب العربي خط وقف اطلاق النار ، وعبر قناة السويس ، وفي اقل من ست ساعات ، سقط خط بارليف آخر ، في المسرح والشعر ، في القصة والرواية والمقالة » .

هذه البرقية لم يرسلها بعد اي مراسل ادبي عربي أو أجنبي لجريدته ، او لوكالة أنبائه . فاحدى المآسي الكبرى في حياتنا الادبية ان المراسلين الادبيين ، وان الذين يكتبون عموما في بلادنا يتقدمهم دائما المراسلون العسكريون . والمراسلون الادبيون ، كتابا وشعراء ، اما يستمدون ما يكتبون عنه من راديو الترانزستور ، أو من تقـارير العسكريين المنشورة في الصحف .

غير ان هذه البرقية الهامة جدا ، والتي لم ترسل بعد ، والتي لم يدرك القراء العرب أهميتها بعد ـ في غمرة المكاسب العسكرية ـ لا بد وان تتركز عليها الاضواء في مرحلة قريبة مقبلة ، عندهـــا سيتناولها النقاد بالدراسة . وستكتب حولها الكتب ، وترص حولها القصائد .. كاكياس الرمل .

ففي لبنان اعلن اكثر من مسرحي واكثر من مسرح قراره بالغـاء المسرحية التي كانت تجري لها البروفات . انطوان كرباج ألغى مسرحية « المارسلييز العربي » وقال :

« لقد سقط عليها عقب سيجارة مشتعل واحرقها » .

اما نضال الاشقر فلقد صاحت :

« ان مرحلة باكملها من المسرح تسقط تحت الانقاض ، أقصد ـ انقاض خط بارليف » .

وتتتابع اقوال المسرحيين في لبنان . ولا اعتقد بان الوضع فـي البلدان العربية الاخرى ، من حيث ارتباط المسرحية بهزيمة الانسان العربي ، وتكريسها لتلك الهزيمة ، هو افضل حالا من لبنان .

أما بعض الشعراء الذين كان يجب ان يكونوا اكثر جراة مـــن الممثلين ، فلم يصرح أحد منهم بكلمة . لقد اكتفوا بسحب قصائدهم من الجرائد ، ومن الملاحق الادبية ، وفوجىء القراء العرب بتوقيعاتهم وهي تتصدر الواجهات الامامية للبرقيات والمذكرات المرسلة الى جبهة القتال . ويبدو ان مسألة النقد ، والنقد الذاتي ، هي مســـألة لا تشكل اية قيمة ادبية أو وجدانية بالنسبة اليهم . فمساحــــة الذاكرة العربية ، كمساحة الارض العربية ، مساحة كبيرة وشاسعة، وفيها من الجبال والمرتفعات والغابات والرمال ، ما يكفي لكي يختفي خلفها هؤلاء .

غير ان القضية ، اقصـــــد قضية الخط المسرحي والشعري والفكري ، والموازي لخط بارليف ، على الضفة الشرقية من القناة ـ اخطر كثيرا من قضية ذاك البعض من المسرحيين والشعراء والكتاب والمفكرين والنقاد والناشرين ... الخ . القضية ـ وبغض النظر عن ان الذين يحاولون الآن ان يظهروا كالغواصات من تحت سطح الماء ، فاذا بهم تحت لافتات القتال ، وتحت الاضواء ـ القضية اكبر مـــن هذا بكثير ، فهي قضية أدب أمة باكمله ، قضية ادب أمة يبنى مـن جديد ، ولا بد من القول هنا انه لا يبنى فوق الهواء ، ولا بواسطة لمس مصباح علاء الدين ، فاذا بالادب العربي يرتفع شامخا على أعمدة ضخمة من الرخام . فهناك ، ولا شك ، قاعدة لادبنا الجديد . فليس كل الشعراء كانوا يدخنون نارجيلة هزيمة الخامس من يونيـــو (حزيران) ١٩٦٧ ، ولا كل الكتاب والدارسين والمفكرين والمؤرخين تحول التاريخ العربي باكمله الى « نكتة » في افواههم ، ولا كلهم تحولت الحضارة العربية ، بالنسبة اليهم ، الى صالون حلاقــــة يخرج منه صلاح الدين الايوبي وكأنه أحد « الهيبيين » ، ولا كلهـم تحول الادب العربي فوق اوراقهم رسوما كاريكاتورية بالفحم الاسود منقولة عن لوحات اجنبية بالالوان الزيتية !

فهناك ، ولا شك ، أولئك المفكرون والنقاد والكتاب والشعراء الذين لم يقصوا جلد وطنهم ، ويحولوه الى ما يشبه مناديل الورق في جيوبهم ، او فوق مكاتبهم ، بل حاولوا ان يلتقطوا من تحت انقاض الهزيمة حجر الماس الذي سقط من صدر الانسان العربي ـ والذي هو قلبه ـ ورغم سقوطه فلم يكفّ عن الخفق والومض .

القضية اذن اكبر من قضية الذين تحولوا الى مقاولي توريد المسرحيات والقصائد والكتب الى مستشفى اللاحرب ـ اللاسلم ، حيث تمدد الانسان العربي فوق سرير وساقه في الجبس وعنقه أيضا ..

فالقضية ، كما قلت ، هي قضية أدب بأكمله ... اذ كيف يمكن ان يتحالف ، على جرح وطن ، كل تلك الديدان ، رغم مختلف الجحور التي انحدرت منها ، تملأ بطنها ـ كالعلقة ـ بالدم ، ثم تعود الى قاعدتها .. وبالعكس ؟ والافظع من هذا ، كيف أقبلت قطاعات كبيرة من الذين يقرأون في هذه الامة على عملية نفخ تلك الديدان ، وتحويلها الى بالونات او مناطيد ، والبعض منها تحوله الى مراكب فضائية ؟!

لقد ضربتنا الهزيمة فوق الرأس وسقطنا ... سقطنا في دوامة من الغيبوبة ، وحينما قمنا بتحريك اطرافنا ، نتحسس نبضات الحياة الباقية في عروقنا ، رأيناهم فوق رؤوسنا . نطالب بالاربطة البيضاء ، فيلفون وجوهنا بقصائدهم . نطالب بزجاجة من الدم ، فيكسرون فوق رؤوسنا زجاجة من الحبر الاحمر .. وحينما كنا نحاول الرجوع ولو قليلا الى الوراء ، لكي نتزود وسط دياجير الهزيمة بحفنة صغيرة من الضياء ، من ايدي ابطالنا وتراثنا القومي ، كانوا يقومون بعملية استحضار ارواح اولئك الابطال ، فاذا بابطالنا يتكلمون لغة المهرجين والبهلوانات .

كانت أمة تحت الانقاض ، أمة في السرداب ، تبحث عن طاقة صغيرة من الخور ، تندفع اليها ... كانت أمة تحس انها أعطت صوتها بلا تحفظ ، وضعت توقيعها في ذيل ورقة بيضاء وألقت بها في الصندوق الانتخابي ومضت ، وحينما أحست بفاجعة انهيار كل شيء ـ كانما احست بمسؤوليتها ـ اندفعت الى أدب نارجيلة الهزيمة ، تشم دخانها وتملأ رئتيها بالغاز السام ، وتسمع الى « قرقرة » القصائد في داخل هذه النارجيلة او تلك ، وتتأوه ... فالجماهير ايضا ، في بعض مراحل التاريخ ، تستمتع بادب التعذيب للنفس . غير ان الاستمتاع بالعذاب لم يدم لفترة طويلة ، فما أسرع ما نهض من تحت الانقاض انسان جديد ، هو انسان المقاومة الفلسطينية . وحدث ان هذا الانسان قد تحول الى « صرعة » او ما يشبه الموضة الجديدة بالنسبة الى ركاب طائرات الهزيمة وركاب طائرات الانتصار معا ، فاستقلوا أول طائرة الى المقاومة الفلسطينية .

وتمر سنة العسل بين المقاومة وركاب طائرة المقاومة ، وما أن تبدأ مرحلة الحصار والمطاردة ، ومرحلة شارع فردان ، ومرحلة رسائل الديناميت ، حتى يقفز هؤلاء بالمظلة ، لا يهم أين يقفزون وأين يسقطون ... المهم ان يقفزوا ، قبل سقوط الطائرة . هكذا خيل اليهم . ولو كان القارىء العربي يتابع الخط البياني لتلك البطانة الشعرية والفكرية والادبية لوجد ان الخط البياني سيتوقف عند نقطة ، هي ان هؤلاء الذين وجدوا في انتصارات المقاومة ذلك التغيير لصوتهم الشعري الذي علاه الصدأ واحترق كحنجرة من المطاط من فرط ما زعق بادب الهزيمة ، هم أنفسهم ، أو غالبيتهم العظمى ، أولئك الذين اندفعوا في عملية تجريح وتلطيخ للمقاومة ، باسم النقد والنقد الذاتي .. هذا النقد والنقد الذاتي ، اللذان لم يعرفوهما طيلة حياتهم ، ولم يمارسوهما لا كتابة ولا سلوكا . وها هم الآن هم ، ركاب طائرة الهزيمة ، وركاب طائرة المقاومة ، ثم ركاب طائرة ضرب وجه المقاومة ، ها هم الآن ، ركاب طائرة جبهة القتال ، وركاب طائرة البرقيات والمذكرات !

أكتب هذا من منطلق واحد : هو ان أدب أية أمة ، أدبها وشعرها وفكرها ، يجب ان لا يعامل أبدا معاملة « الاوتوبيس » الذي يتنقل من محطة الى اخرى ، وان أدب الشعوب وفكرها ليس أبدا طائرة ركاب عابرة للقارات ، يمكن ان يأخذ مقعده فيها أي كاتب او شاعر ، بمجرد ان يشتري تذكرة السفر ، ويأخذ تأشيرة المرور وفي جيبه شهادة صحية .

ان ادب الامم وشعورها ، الذي هو روحها ونبضها ووجدانها ، يجب ان تكون له قداسته الى تلك التي يجب ان تصدّ فيها غارات اللصوص . فالادب العربي ليس كهفا من كهوف علي بابا والاربعين لصا ، ليس كهفا تخفى فيه السرقات المتواصلة وعمليات السطو المتواصلة على كنوز هذه الامة .

فالقواميس السياسية والادبية والاجتماعية ، بل على جميع المقاييس الحضارية ، هناك تلك القاعدة التي تحتم دائما مراجعة المواقف من عمليات التغيير الكبرى . واذا كان للشاعر او للكاتب ذلك الشرف العسكري للمقاتل ـ ويجب ان يكون له هذا ـ فيجب ان لا يخجل ابدا من عملية المراجعة لموقفه ، ومن الخروج على القراء بكامل ثيابه المطرزة بكلمات الهزيمة وتكريس الانكسار .

هكذا يفعل كتاب وشعراء الامم الاخرى في مراحل التغيير ، يقومون أول ما يقومون بعملية النقد والنقد الذاتي لكل ما قدموه من أدب أسود ومن حبر شبيه بالسم ان لم يكن اكثر فتكا . يفعل هذا كتاب وشعراء الامم الاخرى ، لانهم يحترمون أنفسهم كشعراء وككتاب ، ويحترمون أممهم أولا وقبل كل شيء ..

أكتب هذا وأنا أعرف مقدما ان مساحة الذاكرة العربية كمساحة الارض العربية ، وهي مساحة شاسعة تماما يمكن ان يختفي في جبالها ومغاورها وفي غاباتها ، كل الذين يرفضون مواجهة النفس ، ويتوهمون بانهم قد أفلتوا من المسؤولية ، ومن العقاب أيضا .

ولكنهم ينسون شيئا واحدا ، أو هم لا يحاولون ان يتذكروا ، وهذا الشيء هو بالتحديد انهم حينما يواجهون أنفسهم ، ويقلبون ملفات قصائدهم ودواوينهم ومسرحياتهم وكتبهم ، عليهم ان يسألوا أنفسهم هذا السؤال الواحد :

« كم بقي لنا الآن ؟.. كم قصيدة بقيت بعد الساعة الثانية من بعد ظهر السبت الموافق ٦ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ ؟ كم قصيدة بقيت ، وكم قصة وكم رواية وكم مسرحية ؟ » .

وأنا لا أتمنى ابدا ان يسقط عقب سيجارة مشتعل بصورة عفوية من يد أحد القراء ، ويضرم النيران في كل الذي كتبوه .

على عكس هذا تماما ، يجب ان تكون كل القصائد والمسرحيات والدراسات والكتب والقصص والروايات ، عن العدمية والموت ، بالمجان ، وكل صور وأشكال الانبطاحات العقلية ، مادة موضوعية للدراسة النقدية الجادة .

اذ ليس من المعقول ابدا أن يتم خروج ذلك المقاتل العربي من الهواء ، ليعبر القناة للضفة الاخرى من سيناء ، ويعبر خط اطلاق النار الى الصخور والمرتفعات السورية ...

بالقطع ، فعمر ذلك المقاتل ليس اسبوعا ولا اسبوعين ولا ثلاثة اسابيع . اي انه بالتحديد لم يولد ظهر السبت ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، فمتوسط اعمار جنودنا بين العشرين والثلاثين .

وهنا لا بد ان يطرح هذا السؤال الكبير نفسه : اين كنا اذن وسط كل عمليات التغيرات الكبرى في داخل الانسان العربي والمقاتل العربي ؟ لا بد وان تغيرات جذرية قد حدثت . وبالطبع فتلك التغيرات – واقصد بها التغيرات النفسية والوجدانية والروحية والعقلية – لم تتم تحت الارض وبشكل سري ، فاولئك المقاتلون لم يهبطوا علينا من القمر ، ولا من كواكب اخر ، انهم ابناء العمال والفلاحين في بلادنا ... وكل واحد منا ولا شك له اخ او ابن عم او صديق من هؤلاء المقاتلين . وبالطبع فالمسؤولية لا يتحملها كاملة اولئك الذين يكتبون ، بل يشاركهم ايضا في المسؤولية كل من اقام الحواجز او قام بمد الاسلاك الشائكة للعزلة بين الكاتب وبين وطنه .

ومع ذلك فلقد فوجئنا بتلك التغيرات كلها ، ولو كنا على درجة او اخرى من الالتصاق بهؤلاء ، لعرفنا ببعض تلك التغيرات ، وكتبنا عنها ، ولكن المفاجاة التي ضربت راسنا بهراواتها كانت تعني شيئا واحدا ، لا يمكن ابدا انكاره ، هو اننا كنا في عزلة تامة عن كل تلك التغيرات – ومن اجل هذا كنا نكتب في الاتجاه المضاد تماما وفي الاتجاه المعاكس . كان المقاتل العربي يكسر الجبس عن قدمه ، واقدامنا لا تزال في الجبس ، ونتوهم ان كل شيء قد اصبح في الجبس . وهكذا تحول ادبنا في خطوطه العريضة ، وتحول شعرنا في خطوطه العريضة ايضا ، الى ادب في الجبس ، والى شعر في الجبس ، الى كتاب وشعراء في الجبس ، من الرأس الى القدم .

هناك مفارقة غريبة في كل ما حدث ، وهو ان المتنبي – الذي أوشك بعض الكاتبين والدارسين والشعراء ان يطالبوا بتعليق صورته فوق جدران مخافر البوليس ، ويطالبوا بالقاء القبض عليه حيا او ميتا لان قصائده قد كتبت بحد السيف ، ولانه كان شاعر مرحلة مواجهة ، وشاعر معركة المفارقة الغريبة العجيبة ، ان المتنبي ، بكامل اسلحته وقصائده ، كان مع الدفعة الاولى التي اقتحمت خط وقف اطلاق النار في الجولان ، وان المتنبي كان احد المدافعين عن الجولان وربما كان يطلق « صاروخ سام ٦ » ، او ربما كان يقود دبابة ..

المتنبي لم يفاجأ وكان مع الدفعة الاولى من المقاتلين ، لانه – ومنذ مئات السنين – كان يعرف ذلك الشيء البسيط الذي هو الانسان العربي ، وكان ملتصقا به . ولم تكن معارك سيف الدولة كلها بالمعارك المنتصرة ، فما اكثر ما هزم سيف الدولة ، ولكن حجر الماس ظل على خفقه وومضه في صدر المقاتل العربي .

* * *

انا أضع يدي على قلبي الآن ، فاذ ننتقل دفعة واحدة من خط الهزيمة المطلقة الى خط الانتصارات المطلقة ، اخشى ان تصبح القصائد المنتصرة في مستوى « الساندويتش » ، وان تفتح اكشاك شعرية جديدة لبيع مثل هذا « الساندويتش » الذي سيقبل عليه القراء ولا شك .

اخشى هذا الانتقال المطلق ، لان علينا ان نعامل انتصارات وطننا لا كأوتوبيس ركاب ، ولا كطائرة ركاب ، ولا كعربة شحن ، ولا « كساندويتش » . فلقد تغير المقاتل العربي وتغير الانسان العربي ، وعلينا نحن ايضا ان نتغير .

الاسبوع العربي
٢٢ تشرين الاول

الثورة والثورة المضادة
نحو حساسية ثورية جديدة

تأليف هربرت ماركوز
ترجمة جورج طرابيشي

في الوقت الذي توجه فيه الرأسمالية اهتمامها الاول الى اخماد حرائق التمرد والثورة داخل حدودها وخارجها على حد سواء ، تبدو انها شرعت باعادة تنظيم نفسها تحسبا وتحاشيا لخطر ما يزال غامضا لكنه كلي الحضور ، خطر حركة تعانق لاول مرة في التاريخ الكرة الارضية بأسرها . وازاء الاعراض الاولى لهذا الخطر المستطير تنكب الرأسمالية على تأسيس الثورة المضادة وتكريسها . هذا لا يعني انها لم تعد تنجب بنفسها حفاري قبرها ، ولكن وجوههم تختلف اليوم عما كان متوقعا ، كما لم يعد شاغلهم الاوحد تغيير العلاقات الانتاجية والطبقية ، وانما ايضا العلاقات بين الانسان والطبيعة ، طبيعته الذاتية والطبيعة المحيطة به ، وكلتاهما على حد سواء عرضة اليوم لتخريب منهج .

في هذا الكتاب الجديد الهام يرسم ماركوز ، عبر تحجر النظريات الثورية المعهودة ، المعالم العريضة لحساسية ثورية جديدة .

يصدر قريبا